

تأملات نحوية (١)

استنباطات
في الحروف والأدواتد. نعيم محمد عبد الغني
أكاديمي مصري

ثانياً: هذه الأدوات عند تسميتها - بغية تصنيفها- مثلت مجموعات دلالية يتم الاختيار من بينها؛ لشغل الوظيفة النحوية المناسبة، والاختيار يتم من داخل كل مجموعة، أي يختار مثلاً من حروف العطف ما يدل على الترتيب، أو يختار من حروف الجر^(٢) ما يدل على التبعية، وهناك أدوات تدخل على العاقل وأخرى تدخل على غير العاقل وهكذا.

ثالثاً: هذه المجموعات التي تصنف فيها الأدوات ليست مجموعات مغلقة، فقد تشترك كل مجموعة مع أخرى اشتراكاً لفظياً أو معنوياً، فأما الاشتراك اللفظي فإننا نجد الواو في مجموعة القسم، ونجدها في العطف، ونجدها مفيدة الاستئناف، وكل تصنيف لها يترتب عليه أثر وظيفي ودلالي مختلف، وهناك مثلاً أدوات تفيد الاستعلاء أو انتهاء الغاية كحرفي الجر إلى وحتى.

ورغم إمكانية إدراج كل مجموعة من الأدوات تحت حقل دلالي واحد إلا أن كل أداة تحتفظ بسمات تميزها عن الأخرى، فمثلاً الحروف التي تدل على انتهاء الغاية هي: (إلى - حتى)، و(إلى) حرف جر من معانيه أنه

الأدوات مفردات تشغل وظائف نحوية، وهي تشمل الأسماء والحروف، وقد نالت هذه الأدوات عناية النحاة وخاصة حروف المعاني التي تعد في الواقع دراسة للتركيب الذي يكون فيه الحرف بمفرداته وعلاقاته الأخرى^(١)، ولهذه الأدوات سمات نختار منها ما يتعلق بطريقة تفاعلها مع الوظيفة النحوية في الجملة بصفة عامة، وهي:

أولاً: تسميات النحاة لهذه الأدوات كان في أغلبه من منطلق دلالي؛ فهناك أدوات القسم، والشرط، والنداء، والتمني، والترجي، والعرض... إلخ وهذه كلها تسميات دلالية، وقد تكون التسمية وظيفية بحيث يذكر الأثر المترتب على دخول هذه الأداة على مفردة ما كأدوات الجر، التي يكون الاسم بعدها مجزوراً بعلامة أصلية أو فرعية وأدوات الجزم، التي يتمثل أثرها على الفعل في الجزم بعلامة أصلية أو فرعية، وهكذا، وهناك أدوات يسميها النحاة بالمعنيين الدلالي والوظيفي فيقولون عن (لن) بأنها نفي وقلب، وهما أثران دلاليان وجزم وهو أثر وظيفي، ويقولون عن (إن) بأنها حرف توكيد، وهو أثر دلالي ونصب وهو أثر وظيفي.

يدل على انتهاء غاية الزمان نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا﴾^(١)، ويدل على انتهاء غاية المكان، نحو قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾^(٢) فالفعلان (أتموا) و(أسرى) في الآيتين قيذا بحرف الجر (إلى) الذي يفيد انتهاء الغاية^(٣).

و(حتى) مثل (إلى) في أنها تفيد انتهاء الغاية، إلا أنها تختلف عن (إلى) في أشياء، هي:

١. أنها تفيد تقضي الفعل شيئاً فشيئاً؛ ولذا لا يجوز: كتبت حتى زيد، وأنا حتى عمرو، ويجوز: كتبت إلى زيد، وأنا إلى عمرو، أي: هو غاييتي.

٢. أنها لا تقبل الابتداء؛ لضعفها في الغاية، فلا يقال: سرتُ من البصرة حتى الكوفة، كما يقال: إلى الكوفة

٣. أنها لا تجر إلا آخر، أي آخر جزء، نحو: أكلت السمكة حتى رأسها.

٤. أنها لا تجر إلا ظاهراً خلافاً للمبرد والكوفية في تجويزهم جرهما المضر، مستدلين بقول الشاعر:

فَلَا وَاللَّهِ لَا يَلْفَى أَنْاسٌ فَتَى حَتَّاكَ يَا ابْنَ أَبِي إِيَادٍ^(٤)
وقال الجمهور: إنه ضرورة^(٥).

رابعاً: ورغم أن هناك سمات دلالية تخص كل أداة إلا أن السياق يسوغ بأن تتناوب الأدوات دلالياً فيما بينها، كما يحدث بين (إن) و(إذا) لفظاً، أو حين تجيء (إن) بمعنى (لو)، وهذا التبادل يتم لنكتة بلاغية، كإبراز غير الحاصل في معرض الحاصل، أو التفاؤل بوقوعه، أو غير ذلك مما هو مشهور.

خامساً: وهناك أدوات لا يمكن أن ينوب عنها شيء وذلك ما يحدث في كاف التشبيه؛ إذ لا يجعل في مكانها (مثل)، قال السيرافي: «ومما لا يجوز إلا في الشعر جعل

(الكاف) في موضع (مثل)، اسماً وإدخال حروف الجر عليها كإدخالها على (مثل)، مثل قولهم: «زيد كعمرو» يريدون كمثل عمرو، فجعلوا الكاف الثانية في موضع مثل، وجعلوا الكاف الأولى حرف جر دخل عليه^(٦)، والعلة في ذلك أن الكاف والمثل بمعنى واحد، ولا يمكن الجمع بين المثلين معاً فلا يمكن أن نقول: زيد مثل مثل عمرو؛ وأما قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٧)، فالكاف زائدة^(٨).

سادساً: هذه الأدوات التي صنفت في مجموعات حسب دلالتها أو حسب تأثيرها على ما تدخل عليها اشتهر منها ما هو أصل لهذه المجموعة أو ما يسمى بأم الباب، كـ(واو) العطف مثلاً و(إن) الناسخة وهكذا، وبعض من هذه الحروف التي تعد أصلاً على الحقل الذي صنفت فيه يأخذ أحكاماً خاصة عن بقية الحروف التي في مجموعته، فمثلاً (من) تنفرد عن حروف الجر بأنها تجر الظروف التي لا تتصرف كـ(قبل) و(بعد) و(عند) و(لدى)، و(لدى) مثل قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾^(٩) كما أن لها أحكاماً أخرى تنفرد بها^(١٠)، والباء أصل أدوات القسم^(١١) ومن ثم فهي أكثرها^(١٢)، فضلاً عن أنها «تستبد عن غيرها بثلاثة أشياء: بالدخول على المضمر، كقولك: به لأعبدنه... وبظهور الفعل معها، كقولك: حلفت بالله... والأمر الثالث: أن تأتي بها للاستعطاف»^(١٣)، والعلة في أن الباء أصل أدوات القسم؛ أنها للإلصاق، فهي تلصق فعل القسم بالمقسم به، ومن ثم اختص بها الطلب والاستعطاف، فلا يقسم فيهما بغيرهما نحو: بالله أخبرني، وبالله، هل قام زيد، أي: أسالك بالله مستحلفاً^(١٤).

سابعاً: والأدوات لا يمكن أن تأتي مستقلة بنفسها، بل تقتقر إلى مفردات من الأقسام الأخرى للكلم، وهي ببنيتها تضع قيوداً على نوع الكلمة التي تأتي معها، فهناك مثلاً حروف الجر التي تدخل على الأسماء وهناك مثلاً الحروف المختصة بالأفعال، ومنها ما يدخل على الجمل.

صوره على الأداة في تلخيص العلاقة بين أجزائه»^(٢٢) ويتضح هذا مثلاً في أدوات الشرط؛ حيث إنها تتضمن معنى (إن)، يقول الرضي: «إنهم سلكوا طريق الاختصار، بتضمين هذه الكلمات معنى (إن)، إذ كيف يطول عليهم الكلام، لو قالوا في من ضربت ضربت؛ إن ضربت زيدا، وإن ضربت ضربت بكرًا، إلى ما لا يتناهى، وكذا ما، ومتى، وسائر أخواتها»^(٢٣)، كما يتضح في عطف النسق، فلو قلنا مثلاً:

المنشار آلة تقطع الخشب والحديد، فإن عطف النسق اختصر ثلاث جمل في جملة واحدة؛ بغية الاختصار؛ لأن بنية الجملة العميقة هكذا:

١- المنشار آلة

٢- تقطع الآلة الخشب

٣- تقطع الآلة الحديد^(٢٤).

حادي عشر: إن المعنى المعجمي للأداة وما تفرضه من قيود بنييتها وبمعناها المعجمي كما سبق بيانه يجعلها قرينة مهمة في التعليق النحوي للتمييز بين الوظائف النحوية، ومن ذلك مثلاً واو المعية التي تفرق بين المفعول به الذي تدل عليه أساساً قرينة التعدية وبين المفعول معه الذي تدل عليه قرينتا: المعية والأخرى الواو. كما يلاحظ في هاتين الجملتين: فهمت الشرح في مقابل فهمت والشرح، وكذلك غنيت زيدا أغنية في مقابل غنيت وزيداً أغنية؛ فلا الفتحة استطاعت التمييز بين المعين ولا الرتبة معاً لاتحادهما في البابين، وإنما التفريق كان بإبراز القيمة الخلافية الناتجة في مقابل التعدية بالمعية والقيمة الخلافية الناتجة من مقابلة وجود الواو وعدمها. ولما كانت الواو هي مطية المعية هنا فلا يفهم معنى المعية بغير الواو اجتمع في الواو أمر التفريق بين المعينين فصارت هي القرينة الوحيدة الدالة على المفعول معه وأصبح عدمها قرينة المفعول به، ومثل ذلك ما تقيده

ثامناً: والأدوات بنييتها تغير ولا تتغير^(١٧)، ومن ثم فهي تحل في وظائف معينة في الجملة ويمتنع أن تشغل وظائف أخرى، فالأدوات لا تقع في وظيفة المبتدأ أو الخبر، ولا يدخل الحرف أو الأداة على حرف مثله، كما أن الأداة لا تدخل على فعل لا متعلق له مثل: أيقوم إلا إذا دل السياق على هذا المتعلق^(١٨). وحسب تأثيرها وعدم تأثيرها في ما تدخل عليه من مفردات اسمية أو فعلية تقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم يعمل في الاسم فقط وقسم يعمل في الفعل فقط، وقسم ثالث يدخل على الاسم والفعل ولا يؤثر فيهما^(١٩).

تاسعاً: هذه الأدوات لها رتبة معينة في الجملة، فمنها ما يتصدر الجملة دوماً ومنها ما لا يتصدر، ولكنها تتقدم دوماً على المفردة التي تدخل عليها، وتلخص العلاقة بين أجزاء الجملة، وهذا التلخيص يكون سلبياً بعدم الأداة حين تقوم القرينة على المعنى المراد مع حذف الأداة وذلك كالاستغناء عن أداة الاستفهام أو العرض عند الاتكال على قرينة النغمة كأن تقول لرجل رآك تأكل تمرًا (تأكل؟) بنغمة العرض والمعنى ألا تأكل^(٢٠).

وهذه الرتبة تعد قرينة لفظية مهمة للتفرقة بين الوظائف النحوية، فرتبة الصدارة هي الفارق الوحيد بين الأداة والظرف، لأن الظرف «يتقدم على مدخوله نحو «أزورك متى أهل رمضان»، ولكن هذا الظرف إذا تعدد معناه الوظيفي فأصبح أداة شرط لزم الصدارة في الجملة فتصير الجملة الشرطية: «متى أهل رمضان أزورك» ولا تكون متى في الشرط إلا في هذا الموضع»^(٢١).

عاشراً: إن هذه الأدوات تأتي لاختصار الوظائف النحوية في الجملة، «ومن هنا قامت في اللغة أدوات العطف والشرط والنفي والاستفهام، والنداء، والتأكيد، وغيرها لتلخيص معانيها على سبيل الإيجاز والاختصار، ومن هنا كان التعليق بالأداة -وهو الربط- أساساً مهماً في فهم التركيب؛ لأن التركيب العربي يعتمد في معظم

الهوامش:

- (١) انظر: النحو والدلالة، دكتور محمد حماسة عبد اللطيف ص ٥٣.
- (٢) هناك تعليل لتسميتها بحروف الجر من منطلق دلالي وهو تعليل ابن الحاجب حيث يرى أنها تجر معنى الفعل إلى الاسم، أما الرضي فإنه يعلل له من منطلق وظيفي إعرابي حيث يرى أنها سميت بحروف الجر لأنها تعمل إعراب الجر، وهناك من يخرج من هذا الخلاف فيقول حروف الخفض. انظر: شرح الرضي والهمع ١/٣٣١.
- (٣) البقرة: ١٨٧.
- (٤) الإسراء: ١.
- (٥) انظر: ١/٧٠.
- (٦) البيت في شرح التصريح ١٧/٢.
- (٧) انظر: الهمع ٢/٤٢٣-٤٢٩، وانظر: مغني اللبيب ١/١١١-١١٢.
- (٨) شرح السيرافي على كتاب سيبويه ١/٢٠٣.
- (٩) الشورى: ١١.
- (١٠) انظر: شرح السيرافي على كتاب سيبويه ١/٢٠٣.
- (١١) الروم: ٤.
- (١٢) انظر: ارتشاف الضرب ٤/١٧٢٣.
- (١٣) انظر الفصل ٨/٢٣٣، الهمع ٢/٤٧٧.
- (١٤) انظر: الكتاب ٣/٤٩٦.
- (١٥) الفصل: ٨/٢٣٤، ٢٣٣.
- (١٦) الهمع ٢/٤٧٧.
- (١٧) انظر: الأصول في النحول ابن السراج ١/٤٣.
- (١٨) انظر: السابق ١/٤٠.
- (١٩) انظر: السابق ١/٥٤-٥٥.
- (٢٠) انظر اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٢٨.
- (٢١) السابق ص ١٢٦.
- (٢٢) أساليب العطف في القرآن الكريم، دكتور مصطفى حميدة، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، ط ١، ١٩٩٩، ص ٤٥.
- (٢٣) شرح الرضي ٤/٩١.
- (٢٤) انظر: أساليب العطف في القرآن الكريم، دكتور مصطفى حميدة، ص ٣٩، ٤٠.
- (٢٥) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها ص ٢٢٥.
- (٢٦) شرح الفصل ٨/٢٢.
- (٢٧) انظر: من قضايا اللغة، دكتور مصطفى النحاس، الطبعة الأولى (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م)، مطبوعات جامعة الكويت ص ٢٥٢.
- (٢٨) آل عمران: ٣٦.

أداة الاستثناء من فرق بين البدل والمستثنى في نحو المقابلة التالية: حييت القوم زيدا في مقابل حييت القوم إلا زيدا، والنفي والقصر في ما قام زيد في مقابل ما قام إلا زيد^(٢٥).

ولا يقتصر دور الأداة على التمييز بين الوظائف النحوية فقط، بل يتعداه إلى فك اللبس الدلالي، وهذه الظاهرة نجدها مثلاً في الباء الجارة؛ فهي في أصل معناها أنها تفيد الإلصاق، قال ابن يعيش: «فأما الإلصاق فنحو قولك: أمسكت زيدا، يحتمل أن تكون باشرته بنفسك، ويحتمل أن تكون منعتة من التصرف من غير مباشرة له، فإذا قلت: أمسكت بزيد فقد علمت أنك باشرته بنفسك»^(٢٦).

ثاني عشر: هناك بعض الحروف التي تحدد كم الوظائف النحوية في الجملة من خلال السياق؛ حيث إنها تؤدي إلى قطع ما يسبقها من وظائف عن ما يلحقها من وظائف تكون بداية لجملة جديدة، وهذه الحروف هي: واو الاستئناف - الفاء - ثم - حتى - أم المنقطعة - بل - لكن، وتسمى هذه الحروف بحروف القطع؛ لأنها تقطع الجملة عما قبلها بمعنى أنه يستأنف بها كلام جديد^(٢٧)، فمثلاً قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾^(٢٨) الواو أعطتنا إشارة إلى انتهاء جملة ربي إني وضعتها أنثى وبداية جملة جديدة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾.

تلك هي الملامح العامة التي يمكن استنباطها لتفاعل الأدوات باعتبارها مفردة تمثل قسماً من أقسام الكلم مع الوظيفة النحوي في بناء الجملة بصفة عامة.